

الجريمة والزكاة

للأنسة منور حافظ

الجرائم على اختلاف أنواعها مذمومة مردولة لأنها اعتداء صارخ على حرمة المجتمع لا يبرره عرف ولا يقره قانون ولا يرضى به إلا كل خانع مستذل حاقد على الإنسانية جمعاء .

والجريمة في مبنائها كلمة "بها الأسماع وترتعبد من ذكرها القلوب لأنها تصور في ذهن الإنسان معنى من معاني الوحشية في أبشع صورها وأبعد مداها .

لا مشاحة في أن مرتكب الجريمة أيا كانت ثقافته خارج على القانون مارق منه سواء أ كان القانون وضعيا أم سماويا .

ولاشك أن مرتكب الجريمة إما أن يكون فاقد الوعي أو مريض النفس سقيم الوجدان، وكيف لا يكون كذلك وهو يتقدم على سرقة مال غيره أو حتك عرضه أو يقتل نفسا حرم الله قتلها أو يزور أو يرتشى .

والجرائم مهما كان نوعها حتمت دفين كامن في نفس مرتكبها . ولو قشنا بين جيران السجون وتفصينا أخبار نزلاتها ودوافع ارتكاب جرائمهم لظهر لنا بأقوى دليل وأسطح برهان أن الجرائم سواء كانت خلقية أم غير خلقية خاضعة لعامل واحد هو الفقر . ولست أقصد بالفقر قلة المال . ولكنني أقصد الفقر في كل شيء . في الأخلاق . في الضمير . في الوازع الديني . ذلك لأن الجرائم يشترك في الوقوع فيها العلماء والجهلاء والفقراء والأغنياء على حد سواء . وعلى هذا فلا دخل للعلم أو الجهل ولا للفقر أو الغنى بل هي أمراض نفسانية تصيب الجاهل والمتعلم والغنى والفقر .

ولست أرمى من وراء ذلك أن العلم لا يفيد في دفع الجرائم والاقبال منها . ولكنني أقصد أن الكل يقع فيها ، ولكن مما لاشك فيه أن الجهلاء أكثر وقوعا واقترافا للجرائم من المتعلمين . لأن الجهل والفقر عاملان متلازمان من عوامل الاثثار للوقوع في الجرائم خلقية كانت أم غير خلقية . ذلك لأن الفقراء يصدقون على الأغنياء ويحسدونهم على ما أصابوا من رشد العيش وهناء الحال . ويمنون بخدع الأنف أن يصيبهم ما أصابهم . ولو شعر الفقراء بعطف الأغنياء عليهم لارعوى كل فقير . ولما أئدم على ارتكاب الجريمة . وكيف يقدم عليها وهو يشعر بعطف الغنى وإحسانه وبره . وتلك كانت حكمة الإسلام في فرض الزكاة ، فاللئس ما سرق إلا من أجل المال . والقاتل ما قتل إلا من أجل المال . والمرأة ما اضطرت إلى بيع عرضها في سوق الدتارة إلا من أجل المال . إذا فالمال هو أس الجرائم .

وليت شعري ماذا يقول الفرنسيون حينما تقع الجريمة فتش عن المرأة ؟ ؟ إذا ابتهم قالوا فتش عن المال .

بذلو أخرج الغني زكاة ما عنده من مال ما نزل القاتل ولا سرق السارق ولا سقطت المرأة ولقلت الجرائم ولو نسج على متواله كل موسر نائل نقضوا على جيش البعثة المرمم ، ولكن سادتنا الأغنياء يعيشون في قعرهم العاجية ولياليهم الحراء بينما يعيش الفقراء في أكواخ سداها الجهول ولحمها الفقر والمرض .

ونحن في مستهل عهد جديد وكل الأمم قد شمعت عن سواعد جددها لتواجه مشكلاتها بعد الحرب . وقد تبنت بأقوى دليل أن الحكومات وحدها لا تكفي لدفع غائلة الجوع والعري والمرض ما لم يمد إليها المحسنون والأغنياء الموسرون يد المساعدة . وفي كثير من البلدان الأجنبية تقوم جمعيات كثيرة يمسكها بحكماتها بالإشراف على شؤون الحياة الاجتماعية لهذا تمت الحياة هناك وازدهرت ، ذلك لأنهم عرفوا أن عجلة الزمان تدور بأسرع دوراتها ، ونحن ننظر إليهم ومنتدح أعمالهم ولا تقدم على محاكمتهم إلا في النذر اليسير . غير أنني لا أنكر بحال أن هناك جمعية أو جمعيتان قد أدتا بعض ما عليهما قدر طاقتهما وفوق طاقتهما الكثير من الأعمال . ولكن جمعيتان أو ثلاثا أو أربعا لا تكفي بحال من الأحوال . ومن الذي يقول أن جمعية الهلال الأحمر أو مبرة يمد على تكفيان لدفع النقر عن أمة تعددها يقرب من العشرين مليوناً . لقد قامت هاتان الجمعيتان بما حوفوق طاقتهما وكان لاشتراك بعض سيداتنا النشيطات جهدا مشكورا غير منكور . وعلما كتب الكتاب للأغنياء حرسدين وخطب لهم الخطباء واعظين وناصحين . ولكنهم وضعوا أسابهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأسرروا واستكبروا استكبارا .

لهذا لم يبق إلا أن تمن الحكومة قانون الزكاة وتفرضه فرضا وإجبارا ، وإلى هذا تندسبقتنا معظم الدول الأجنبية .

وقد يقول قائل إن فرض الزكاة إجبارا فيه معنى من معاني الاستراكية . وقد فاته أن الدين الإسلامي يحض على ذلك ليشرك النقر في أموال الأغنياء رحمة بهم وشفقة عليهم . "والدين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم"

وليت شعري أي عين يبجل بها أن تستبقي في عاجرها قطرة من الدمع فلا ترتبها أمام منظر البؤساء والفقراء بهم يزرعون الطرقات جيئة وذهابا يبحثون عن لقمة عيش يسدين بها رمةهم أو مزقة من قماش يسترهم بها عورتهم بينما ينثر الأغنياء الذهب على الغواني والقناني وعلى كليات لا ضرورة لها ولا لزوم .

وأي قلب يستطيع أن يستقر بين جنبي صاحبه ساعة من الزمان ولا يطير جزعا ويدور يرى أخوه في الإنسانية عارى الجسد ساوى الرماض .

هذا السلوك المهذب له أثره كذلك في الأبناء فبشبون عليه ويخفى من محيطنا هذه اللذة الحيوانية التي تكرس لها جهودنا ، والتي أصبحت غايتنا توجه أعمالنا وسلوكنا .
لقد فقدنا البطولة في ميادين الفتح والغزو والمسال والعلم فاستعضنا عنها بالبطولة في هذا الميدان وأهزنا به من ميدان !

وناحية أخرى لها خطرهما ولا نكاد ننتسمها في جوانبنا تلك هي رقة المواطنين أو سمو الوجدان ، فالحب معناه الشهوة والصدقة لا تكون إلا لمنفعة ، والوفاء لغاية ، ومواقف اللقاء والودائع جامدة ، والاتصال بين الزوجين المعرفين لا تنبض بالحركة والحزن ، ومحبة الوالدين واهنة ومعاملة الخدم قاسية .
قبلاً دواعي هذه الموجة الزاحفة .

إذا كانت أخلاقنا عاداتنا فدواعي هذه المادية أننا لم نعد منذ الصغر ولم نشأ في جو مشع ببراء الروح فلم نذق أو نشاهد الحب الخالص والصدقة السامية والوفاء المزهو والتعبير عن خلجات النفوس وحرارة الأبناء تبعيراً صادقاً ليس فيه رياء أو تصنع ، والاختد بيد الضعيف والبأس والمحروم .

فأحرى الآباء والمعلمين والكتاب أن يكونوا المثل الأعلى والأسوة الحسنة فيما يسلكون أو يتبعون أو يكتبون .

وأن يهد الآباء الطريق لاستقلال أبنائهم الكبار ونهوضهم بالمسؤولية بأن يجعلوا لكل حجرة خاصة أو مكتبا خاصا ، وأن يعزذوا إلى العناية بمساعدة أمنها في التطوير والكنى والفصل والاتفاق على المنزل ، وإلى القنى بشراء بعض ما يلزم البيت وإصلاح ما فسد من أدواته وبهذا يعاملون على نظامهم النفساني ، وأن يمنحوهم الحرية - حرية التفكير والتصرف والاتجاه والسلوك في حدود السلطة الأبوية التي أشرنا إليها فإني أذهب مذنباً ودولاً للمربين الحديثين الذين يتزعون هذا المتزع ويدافعون عنه في حدود الممكن لتقوية الشخصية والإفادة من التجارب .

وإذا تريا الزواج للننى فعلى الآباء أن يعاملوا على إقامة العروس في مسكن مستقل حتى لا ترى هذه الدداوات والقلائل والطلاق وبعض الزوج المحويها وتحمريض زوجها عليهما فالزوج بفريتها تعمل على السيطرة على بيت زوجها والأم ترى في التزل عن سيادتها خدشا لكرامتها ، وتعدبا على حقوقها مما يؤدي إلى إتساع ثقمة الخلاف واستحكام العدا .

محمد مصطفى عطا

أستاذ التربية وعلم النفس في بركة